طائر الصبا ساقط على البحر

ادوار الخراط

كأنني أدخل من الباب الضيّق مباشرةً إلى السلّم الحجري المعتم، في بيت حارة الجُلّنار.

وكأنني أحسّ مُنى، متفجِّرةً بالحياة، هناك، خلف الباب في الشقة الأرضية، إلى اليمين.

أكبر مِني قليلاً، ما زالت. تخرج الصبح ولا تعود، من مشغل روزا الخيَّاطة الشاميّة في غيط العنب إلا على العصريّة. وبعدها بقليل، تعود جمالات أختها الكبيرة من فابريكة الغزل في كرموز.

قبل الإجازة، عندما أرجع من المدرسة، كان بابها ينفتح - دائماً - وأنا أمام السلّم تماماً. وفي الفَسحَة الأرضية الصغيرة يضيء لي وجهها، فجأة، في اللحظة الدقيقة الهاربة بين إنحسار العصر وعتمة المدخل الرطبة قليلاً.

فستانها لا يصل إلى ركبتيها، ينزل على فخذيها المدوّرتين بانسياب، وصدرها الصغير أحسّه حُرّاً، ومتماسكاً، ناهداً. وترفع وجهها إليّ، خجلةً وجَسوراً معاً، وتنظر إليّ بعينيها المنتفختين المائلتين قليلاً، نظرة يرفُّ لها قلبي ولا أعرف معناها. وتسلّم «سعيدة» بصوت ناعم، مرتعش وكله ثقة مع ذلك، وتكاد تمسّني بجنبها وهي تخرج إلى الحارة، تسحب في قدميها السِّكِرْبينة القديمة الممسوحة الكعب، ويثيرني حفيف فستانها ورائحة جِلدها المغسول.

أما الآن، في إجازة الصيف الطويلة، فلم أكن أراها إلا على المغرب، عندما أصعد إلى السطوح. أترقَّب وصولها من الشباك، وفي يدي قصيدة كِيتْس «السيدة الجميلة القاسية» من كتاب «التنين الذهبي» بالانجليزية. حتى أراها قادمة من أول الحارة، فأحسّ الدم يفيض من قلبي.

ذلك الصبيّ الذي كنت، ولما أزل، رومانتيكياً جداً، ومشتعلاً بيقظة جنسية متملّكة، ويظن نفسه ساذجاً، في وقت معاً.

كنت أحب مُنى ولا يقين عندي من أنها تحبني أو أي شيء من هذا القبيل.

وكان في يدي ما زال، وكأنني نسيته، كِيتْس و«التنين الذهبي»، وأنا أدفع باب السطوح الخشبي، فيهاجمني نور آخر النهار، وطراوته نفاذة قليلاً من هواء الملاّحة القريبة وعطِنة قليلاً من روائح الحارة.

اندفع ذَكَر البط الكبير يمدّ رقبته إليّ ويسحبها ويمدها من جديد، وهو يفحّ، منافحاً بالحاح عن مملكته التي اقتحمتُها.

كانت مُنى متربّعة على البلاط، وتحت فخذها البطة الكبيرة، مضغوطة برفق تحت اللحم الأسمر المَمْسُود، تمسك بالمنقار الأصفر المفلطح بيدٍ تقطر بالماء، وباليد الأخرى تزجّ بأقراص الردّة المعجونة بالذُرَة العُويجة. وصغار البط يمرح على السطوح ويضيء ويتأرجح ويتدأدأ مدوّراً أصفر الزغب بمناقير حمراء كبيرة.

كانت قد غيَّرت. أعلى فستانها البيتيّ، الصيفيّ، المنحسر عن فخذيها الرشيقتين، مبلول وملتصق بالصدر العاري، يحدّد قوام ثدييها الصغيرين، مستكنّين بصلابة في البلل. ولم أكن أملك أن أحوّل عيني عن عمق العتمة المشتهاة بين فخذيها، يتخايل أكثر إضاءة وأوضح تلويناً في الخفاء المُلِمّ.

سمعت صوتي محبوساً قليلاً، وأبَحّ: إسمعي يا مُنى، عايز نشوفك.

رفعت رأسها إليّ، ويدها ما زالت تفتح المنقار المفلطح الفاغر، وكان شعرها القصير الحالك السواد غير مسرح، مجعداً بتموّجٍ طبيعي، ورأيت، في ذقنها المثلث، لأول مرةٍ بوضوح، أثر جرح غائر، خطاً رقيقاً أكثر بياضاً من سمرة الجلد الناعم الذي التأم عليه.

كانت عيناها ممتلئتين بغرابة، تحت انتفاخ جفنيها الخفيف، وجادّتين، تُكذِّبان النبرة المعابثة: أيُوه. ما أنت شايفني أهوه يا خويا. سلامة الشوف ولا أقول لك إيه - شافتك العافية. ما تشوفش وِحش أبداً.

فَحِمت، لم أستطع أن أجيب على الفور.

كانت قد أخلفت لي موعدين، غير مؤكَّدين مع ذلك، مرة في الشلالات، ومرة على قمة حارتنا وشارع راغب باشا.

قلتُ في زمنٍ آخر إنني لا أريدك أن تحملي عني صمتي، ولا أريدك أن تتحصَّني وراء هذا الصمت مني. فهل إنكسر الصمت أبداً؟ وهل التقينا؟

(*) الفصل الأول من رواية «يا بنات اسكندرية» التي تصدر هذا الشهر عن دار الآداب ببروت.

قلتُ إن اليأس يقول لي: لا.
ولا أصدّقه، ولا أملك أن أصدّقه ولكنه ملحّ، وله سطوة مُقْنِعة.

طائر الصِبا الذي يحلّق بعيداً عني، في أفقٍ غامض، وكأنني أمسكه بين يديّ، ويرفرف بين أصابعي.

استطعت أن أحملها، في النهاية، على أن تأتيني أمام حلقة السمك في المكس، يوم الخميس، الساعة خمسة، إذ أنها ستذهب بعد ذلك إلى خالتها في السَّيَّالة.

قالت لي مُنى إن خالتها كانت أصغر من أمها كثيراً، وإنها جاءت لجدّتها على كَبَر، وتزوَّجت من سنين، ملاحظ أنفار في المِينا، ولكنها لم تخلِّف حتى الآن. وقالت لي إنها جربّت كل الوصفات، ولبست كل الأحجبة، وراحت لسيدي أبي الدردار، وفكّت الحَبْس والوصَدَ والعمَل وعملت الزار وذبحت للأسياد بل ذهبت إلى مصر ومسحت قبور الأولياء والصالحين وكنَّست جامع السيدة ودقَّت المسامير في بوابة المتولي وفي شجرة العدرا مريم في المطوية على السواء، ولكنها لم تخلِّف حتى الآن، وقالت لي إنه موصوف لها دم التِرْسة مذبوحة وهي حية وطالعة من البحر.

وكانت متوهِّجة الوجه، وأسنانها الصغيرة تلمع، وهي تحكي لي، وتقول.

كنت قد قلت لنفسي إنني لن أقبل أبداً الإرتباط بها، ولن أخرج إليها أبداً، ولن أنتظر أن تأتيني على أية أرض، عن طريق الصدفة أو عن طريق التدبير سواء. ونكثت بعهدي لنفسي.

لم أكن قد نسيت لحظة واحدة نظرة العاشقة في عينيها الجاحظتين قليلاً، الممتلئتين بالوَلَه، وكأن العالم ليس هناك، وهي ترفع وجهها إلى محروس ابن خالتها الطويل الغليظ الشفتين الذي يسكن في بيت مِلْك على البياصة، بعد شارع ١٢.

ولا نسيت تدهور قلبي وبُرحَاء العشق الذي ران عليه الحبوط، ولم يختنق ولا صحَّ عوده في آن.

ولا كفَّ وجيف القلب الغرير، على تمرّسه بالوجيعة التي لا تكاد تطاق.

وكنت، ولا زلت، أضحك قليلاً، في سرّي، على حكايات هذا القلب، مع أنها جدّ خالص ومرير.

بعد صلاة الجمعة ارتفع في الحارة فجأة صوت نفيسة وهي تنادي: «شُوبَشْ يا حبايب... شُوبَشْ والحاضر يقول للغايب - يا موونا. يابتُ أم محمود» وفي نبرتها تحدٍّ لا يمكن أن يُرَدّ. وحَموة الشمس تُثقل النداء بحِمل رازح.

- شُوبَشْ يا موونا يا ختي اطلعي لي أما أوريكِ اطلعي يا بت.
تعالَ يا محمود يا سيد الرجالة شوف أختك اسم الله عليها عملتْ ايه.
طَبْ حِبّ وداري واكْرَه وواري.. ما طلع النهار خلاص وبان العَوار يا ختي يا حبيبتي.. قال على عينك يا تاجر قال اللي ما يشتري يتفرج.. وشُوبَش.

انفتحت شبابيك الحارة، كلها، وقرقعت، بالتتالي، وهي تخبُّط الحيطان وظهرت ألواح الزجاج الملصق عليها شرائط من الورق الأصفر العريض، خِلْف خِلاف. وفي هذا الظُّهْر القابض خرج الأولاد والبنات بجلاليبهم القصيرة على اللحم، لا لون لها، وهم يصيحون ويتسابقون: «هيه.. نفيسة أهيه.. نفيسة أهيه..»

كانت نفيسة تطل بنصف جسمها كله، وصدرها الصغير المملوم دقيق التكوين وكامل التدوير، يكاد يخرج وهي تنحني من شباك بيتهم. كانت سمراء بُنية نقية الخد ومصقولة الوجه جداً، وشعرها مجزوز وكثّ وحالك، يضم رأسها بشدة. كانت في قامة بنت صغيرة ويخيَّل للواحد أنها لم تتجاوز الثانية عشرة مثلاً، حتى يرى صدرها المحكم الاستدارة يرفع فتحة فستانها الضيِّق اللامع دائماً، الذي يحيط بطنها باحتقان وثيق. كان جسمها المنمنم أنثوياً حتى النهاية، ومستحكماً معصوباً لا رخاوة فيه. عيناها واسعتان ناضجتان في سمرة وجهها الناعمة، وفمها شهويّ وفسيح وناتىء الشفتين. كنا نعرف أن مُنى ونفيسة حبيبتان، الرُوح بالرُوح، وإنما يحبان معاً الولد محروس الذي يشتغل مع محمود أخي مُنى الكبير في ورشة جنب البياصة، ويجيء يتعشى عندهم تقريباً كل مساء. كنت لا أكرهه، ولا أغفر له.

تزلزل قلبي من صراخ نفيسة، كنت أعرف شُهرتها المدوية، ومقدرتها التي لا تضارَع على التلميح والتجريح والتلقيح والتصريح سواء كان المعلم أبو دراع العربجي، أبوها - نحن نعرف هذا كلنا - صاحب سطوة في الناحية. وكان له باع طويل في حكايات الأفيون والحشيش ونسوان كوم بكير، والكل يعمل له ألف حساب. وكانت نفيسة مملكة الحارة بل الجيرة كلها في فن الردح العريق وخمّنت أن هذا اليوم لن يمر على خير.

جريت إلى النافذة، وأمي هتفت بأخواتي البنات أن يرجعن ورا، بلا قلّة حيا، ورأيت على الفور أن شباك الست أم محمود، تحتنا، ظل مُغْلَقاً. وكان بوسعي أن أحسّ التوتر خلف الضُلفَ الموصدة التي أعرف أنها مسدودة بورق أزرق داكن بَهت قليلاً من الشمس، مثبَّت على الخشب بدبابيس الرسم المدوَّرة الرؤوس، وأن أُحسّ، من فوق، الحضور الفياض عن جسم مُنى، وأمها تحوشها بيديها وذراعيها عن الخروج، وظهرها إلى الشباك.

كانت الست أم محمود هي الوحيدة التي ما زالت تذكر أن زوجها المرحوم كان موظفاً قد الدنيا في البلدية، الله يرحمه، وما زالت تحتفظ بصورته، بالبدلة الميري والطربوش، في منتصف الحائط تماماً في صالة البيت فوق ترابيزة السفرة التي لا تستخدم أبداً، المكسوّة بمفرش مشغول تخلل تراب السنين نسيجه، يتوسطه كرسي عِباس كريستال أصلي فيه برتقال وموز ويوسفندي من الشمع، وكراسي

الطقم المذهّب الناصل تدور بالصالة، حرس قديم لا عمل له الآن.

كنت أعرف هذه الصالة، في عتمتها، والشباك موصد، ومعي مُنى، حق المعرفة. وكانت الست أم محمود عندئذ تأتي لي من المطبخ بمربى البلح، كل ثمرة غارقة في عسلها، ونـدية غضّـة، امرأة نحيلة مقدّدة وطيّبة جداً وتصلّي الفرض بفرضه، منكسرة دائماً وتخدم أولادها الثلاثة بنور عينيها من سُكات.

كانت نفيسة قد استنفدت الآن مقدمتها التقليدية المحفوظة: وأنتِ مين انت يا إبرة مصدّية، يا عصاعيص النقاريّة، على الكوم.. إلى آخره إلى آخره، ومضت إلى الفصل الثاني من إبداعها الخاص.

رأيتها تنزل إلى الحارة، جرياً، حافية القدمين، وقد تحلّق حولها العيال صامتين الآن، مبهورين.

ألقت بنفسها على تراب الأرض دون تردد، وانحسر فستانها الوثيق، قليلاً، عن فخذيها الداكنتين بعضلاتها الرقراقة القوية، وهي تتأوّه وتنادي في شَبَقية غير منكورة ومن غير تحفظ «محروس.. محروس» بصوت يذوب طَلَباً وغُلْمة.

كانت مُنى هي المرميّة على تراب شهوتها، على الملأ.

وقف الأولاد الذين جاؤوا جرياً من الحارات المجاورة، ومعهم رجال محترمون بالمعاطف الخفيفة فوق الجلاليب البلدي، وعيال صِيّع من شارع راغب باشا، والنسوة بالملايات اللف التي سقطت من على أكتافهن. وبعد ضحك قليل وهمس سريع أو جهامة عابرة صمتوا جميعاً، مفتونين. وسقط علينا الظُهر فتجمّدنا تحت وطأته. تقلصات الشهوة وأنينها الجارح في الصمت المطبق، ثم لحظة الاختراق وتشنّجها المميت ولوعة صرختها في ذروة المتعة، والنداء الذي يخفت في راحةٍ وهمود.

كانت البذاءة الصَراح قد وصلت إلى منتهاها حتى هزمت نفسها، فلم تعد، تقريباً تمسّ نفوراً أو تستثير غضباً أو حتى تستدعي ضحك الحرج والتأثم. بل أصبحت البذاءة سحراً ملتبساً له قوة غير مفهومة وغير مبرّرة. وكان حس الذكورة يملأ الحارة كلها ويطؤها. وكانت الظهيرة محتشدة بها، وقد عادت إلى براءةٍ أولية صَراح.

ثم وثبت البنت التي ذابت في جسد غريمتها وحبيبتها، وصرخت صرخة ثاقبة ألجمت الحارة كلها دَهَشاً وفَزَعاً، وهي تتلوّى بجسمها الدقيق البارع الخلجات، في تباريح المخاض، وتعوي بوجع الأمّ التي تكابد خروج الوليد، وإذا هي تحمله بين ذراعيها، فنسمعه في صيحة استهلاله الأولى الخافتة، ونراه، جميعاً، رأيَ العين، رقيقاً مغمّض العينين أحمر الجلد. وهي تُخرج له بالفعل ثديها الصغير، في نور الظهر القاسي، وتلقمه الثدى المكوّر، تضغط بأصبعيها على اللحم الأسمر العذري: نِنّه هُوه.. نِنّه هوه.. ننّه نام..»

وتنقلب نفيسة، تخرج من جسد مُنى الذي تلبّسها، لتعود تصرخ إليها: وَدِّيتي العيّل فين يا شرموطة.. تعالَ يا سي محروس شوف المحروس ابنك فين.. شوف المحروسة تاوتْه فين يا حبيـ.. بي.. ما هو بَعد الحَبَل والرضاعة بانت البضاعة.. وعلى وِشّك يبان يا مدّاغ اللبان يا ست موو..نا..

وقد تحرّكت الحارة الآن، ونفّست عنها الرَصَد، ونزلت الست سنية زوجة أبيها، وألقت عليها بجسمها الرجراج المتين، والتمّ حولها نساء الحارة يجذبنها معاً إلى البيت ويصرخن ويهمسن في أذنها ويحتضنّها ويربتن عليها ياختي دا باسم الله الرحمن الرحيم.. والنبي، يجعل كلامنا خفيف. حواليكِ ولا عليكِ، خلاص ياختي خلاص، دانتو اخوات يا ضنايا وما تستغنوش عن بعض، هوه الضُوفر يطلع من اللحم برضو، خلاص ياختي خلاص.. تعالي..».

وما زالت نافذة الست أم محمود صامتة، مغلقة على كرامتها الجريحة، مصونةً ما زالت، بعناد، وعلى فضيحتها غير المستحقة.

الانتهاك كنت أنا فريسته.

لا غفران أبداً لقسوة العالم. نهائية مطلقة، لا شيء يرجحها، أو يفسِّرها.

ونبض دمي يضرب في الوحشة، والصمت. ما أشد الإيجاع..

الدموع لا تجفّ ولا تُرفَأ، ولا تعني أحداً على أية حال.

عندما قامت نفيسة، بجسمها الصغير الذي ما زال يرتجف قليلاً كأنما على الرغم منها، كان فستانها الأخضر مترباً في أماكن الامتلاء، لامِعاً عند تجويف الخصر الرقيق. انتزعت نفسها من نسوة الحارة اللاتي ما زلن يغمغمن بصوت حنون، أو يهتفن بصوت معدني، أو يلغطن في فرح مكتوم: يا ختي دي العِشْرة ما تهونش إلا على قليل الأصل، وأنتِ يا حبيبتي بنت الأصول برضو، دي مونا برضو أهي أختك وحُرة وبنت أصل، دِهْدِي...»

انفلتت نفيسة من بين الأذرع والأحضان النسائية، وحدها، ورأيت الدموع الصامتة تنسال هدوء على وجهها المدوّر الذي شحبتْ سمرته المضرّجة الداكنة فجأة، كأنه وجه بنت ماتت وهي بعد بكر، غير ممسوسة. وكانت وحدها.

كنت جريحاً، ممُزقاً لحمُ قلبي، أشتعلُ بالغضب، أعرف أنني أحبها وسأظل أحبها ولن أكفّ لحظة عن حبها، أُسكّن من هواجس نفسي وأُسلس شِماسَ وساوسها، وأُنحي عليها باللائمة وأصِمُها بالخَور وأعرف مع ذلك إنني صلب ومُحِبٌ حتى النهاية. وأعرف أيضاً أن الخيانة عندها بلا معنى، بلا وجود، وعجيج الألم الضاري الوَحِيّ الضارب في لحم القلب.

وكان البحر فسيحاً، مراكب الصيد الصغيرة بأشرعتها الضيِّقة تهتزّ على الموج الذي يكاد يكون مسطّحاً، وداكن الزرقة، رأيت الصيادين بالصديري واللباس الاسكندراني الأسود الواسع الطيّات، يبسطون شباكهم وينفضونها من السردين فيتتابع ويصطدم ويرتطم بخبطات طرية دسمة ويسقط على الكومة الفضيّة التي ترتعد ما

زالت بالحياة، في قاع المركب. وينحني الصيادون ويلقون بالسمكات الصغار إلى البحر، والأولاد بأجسامهم المحروقة يسبحون حول المراكب، منهم العراة تماماً ومنهم من اكتفى باللباس العبك المتهدّل الذي يكاد ينزلق من على وسطه، يغوصون، برؤوسهم أولاً، ويخرجون على الفور وفي أيديهم السمكات التي تضطرب وتتملّص وتتلّوى وتنزلق، فيرمونها في أكياس مرتجَلة من الخيش الغامق المبلول يشرّ منها الماء كلما خرجوا يشقّون سطح البحر. والنوارس الرمادية الضخمة الأجنحة تنقضّ فجأة من علٍ وتخطف صيدها من المراكب، ومن أيدي الأولاد، صدورهم المخسوفة يلمع جلدها مشدوداً على العظام الناتئة، ترتفع وتنخفض باستمرار، وتحلّق النوارس ظافرة، صاعدة في خطٍّ مستقيم، وهي تنعق مهدِّدة، غاضبة أو خائفة.

وكنت أعرف أن أمي، وقد مات أبي بعد ذلك بقليل، سوف تأتي إلى هنا لتشتري لنا هذا السمك الشِرّ، بالشَرْوة، بكم؟ بتعريفة ونص؟ أم بالقرش الصاغ الصحيح؟

كنت قد أخذت ترام المكس المفتوح من الجانبين، وكان ألم الحب، والغيرة، والامتهان، يعتصرني وله رائحة المدابغ النفّاذة العطِنة التي خنقتني. ولم أكن واثقاً أنها سوف تأتي، وتعمّدت أن أتأخر، وتعلّلت بكل الحجج، ومشيت من البيت حتى محطة مصر، وكنت أظن أنني أسير على مَهَلي وأعرف أنني أمدّ خطوي، بل أهرول وأخبّط الناس القلائل في الشارع، وتركت الترام يفوتني، بعد جريت وراءه، وكدت أجنّ قلقاً لما تأخر الترام التالي.

عند صهاريج البترول الكبيرة والشعلة المتقدة المتطايرة التي لا تنطفىء، رأيت على سِيف البحر صفّاً من العساكر الأمريكان الشِداد يقفون وظهورهم لنا، ينظرون في اتجاه البحر، شاكي السلاح، مشدودين، وكانت البارجة الانجليزية شاهقة بيضاء راسخة في البحر ومشرِعة مدافعها نحو مركب حربية صغيرة رأيت عليها حروفاً باليونانية والعلم الأحمر يرفرف من بعيد، كأنما باستماتة، على صاريها، ورأيت صفّاً من العساكر بخوذاتهم وأقنعتهم الزجاجية التي لا ينفذ منها الرصاص، مدججين، يسدّون الشوارع الضيِّقة التي ذرعها الأنبياء والشعراء والحالمون، في القدس ورام الله والناصرة وبيت لحم والخليل، يقذفون الأطفال بالرشاشات السريعة الطلقات والقنابل المسيلة للدموع، يحيطون بالنصب الدائري الجرانيتي الذي يلمع بالليل في قلب ميدان التحرير ويضربون الأولاد والبنات بالهراوات، ويسوقون الأسرى إلى عربات السكك الحديدية المغلقة الخانقة وإلى الخنادق الموحلة المثلجة في وارسو وسيبيريا وغرف الغاز في داخاو، ويجُرون وراء عمّال الغزل والنسيج في المحلة وكفر الدوّار وكرموز وطلبة الحقوق والطب وسائر العلوم على ربوة العباسية في محرّم بك، دباباتهم الصفراء الصغيرة عارفة بنواياها، ويضربون بالرصاص من البنادق الطويلة القديمة الطراز فيسقط المئات في الساحة الفسيحة أمام قصر الشتاء، وتصفر سياراتهم السوداء المسدودة أمام السوربون، ويجُرُّون بمقاودهم الجلديةِ الكلابَ المدرَّبةِ الشرسة فتنهش سيقان السود في جوهانسبرج، أو المسيسيبي على السواء. وسوف أعرف بعدها بسنوات، أن الانجليز قتلوا مئات من البحّارة الثائرين الذين انضمّوا إلى جيش التحرير في اليونان، وأسروا الباقين، حتى انكسرت الثورة بعد الحرب.

عندما سألت سوّاق الترام وأنا نازل في آخر محطة اكتشفت أن الساعة ما زالت خمسة إلا خمسة، وكنت قد تيقّنت الآن أنها لن تأتي. أفف، غير مدركٍ ماذا يقع لي، تحت سور القلعة القديم بأحجاره الكبيرة الرمادية، يرتفع إلى يساري شاهقاً يحجز انهياراً دائم الحدوث، وكأنني لا أرى البيّاعين والصيّادين جالسين القرفصاء أمام مشنّات ومغالق وقُفف تفيض بالسردين والبوري والمياس والجمبري والكابوريا، وأحاذر أن أدوس على أجسام السمكات الصغار المنفيّة، مهروسة على الرصيف، مسطّحة، انبعجت من أبيضها بروزاتٌ مُدمَّاة باهتة عند البطن والرأس المدعوك المسوّى بالأرض.

كان كل شيء يبدو معادياً، وقريباً جداً مني، كازينو زفير بخشبه الأخضر الداكن وزجاجة المغبّش يلوح لي غير بعيد. كشك مزلقان السكة الحديد وعليه بالخط الثُلُث الكبير، ثابت ثابت وشركاه نترات الشيلي الطبيعي. كانت هذه الكلمات تجعلني أحلم باستمرار منذ أن كنت أجيء مع خالي ناثان إلى الكازينو، ونأكل السمك بالليمون والبصل والبهارات في وَرَقةٍ دسمة طالعة سخنة من الفرن. كان البيت ذو الشرفات العربية المنمنمة الذي تعرّفته، حائلاً وشكله مهجور ولكنه هو، بعد ذلك بأربعين سنة. فندق سي جَلْ - لم يكن عندئذ مَطْعماً مزخرف الأناقة - مَبْني مُصْمَتُ الجدران رمليّ اللون مغلق على أسراره المشبوهة.

تأتيني حتى الآن رائحة الملح والسمك الطازج ويود البحر تفغمني.

نزلتْ جماعة صاخبة من العساكر الاستراليين، بقبعاتهم العريضة الواسعة، من عربة حنطور وقفت أمام الكازينو، وهم يصفّرون للبنات والنسوان بملاءاتهن المحبوكة على الأرداف، ويهتفون دون جدية ودون اهتمام تقريباً: كام أونْ بنت. فانتازيّة.. كم أونْ. وقلت لنفسي لماذا قلت لها أن تأتي هنا؟

تَزلزلَ قلبي وأنا أراها، مرةً واحدة، تقف أمام صيّادٍ فارع وشاب، محروق الوجه ووسيم وأزرق العينين، وهو ينحنيَ على طشت كبير وعميق مليء بماء البحر، تخبط في جدرانه النحاسية المستديرة بَرْسة ضخمة، محبوسة وحيّة وبطيئة الحركة، ولما وقفت إلى جوارها، لم تلتفت إليّ، لم تحيّني. قلت لنفسي: خائفة على نفسها أن يراها معي أحد. قلت لنفسي: أنكرتْني للمرة الثالثة. وكانت

تساوم الصيّاد الشاب بصوتها الأغن قليلاً، تنظر إليه بعينيها المرفوعتين المغْويتين. قلت لنفسي: كل الأسلحة مباحة. والأنوثة - وحدها - سلاحٌ هي تعرفه. وكانت تلعب بعقدها الكبيرِ الحبَّات حول عنقها، أصابعها الطويلة تتحسَّس الجزء العلوي من جِيدها البيّن.

- لا يا خويا عشرة صاغ كتير أوي والنبي. دي بشلن ونبقى كارمينك وعشان خاطرك أنت بس. طب وحياة النبي ومن نبيً النبي نبي داحنا عايزين نكرموك، داني حنيجي على نفسي بس عشان ذوقك، ومجدعتك. يالله بقى، بيع، ربنا يعوِّض عليك.

فقال لها الولد الإسكندراني الحليوة: ماشي كلام الحِلوين، بس قولي لي العنوان يا ست الكل واحنا نوصّلْ لِك لحدّة الباب عندكو، والناس لبعضها برضك. . وكله قسمة ونصيب.

فلم تقل له إن الترسة ليست لها، هي، وظننت أنا أنها تركت له ساحة الغواية مفتوحة، كعادتها.

رمقتني بسرعة، بجانب عينها، نظرةً أحسستها تُغرقني بانهمارٍ سخن وغير صاف، نظرة تغريب تنفيني وتلغيني. وعرفت عندئذ أنها سوف تحيلني إلى شفرة في رقصةِ أرقام لا أدري ما حِسْبتُها، وإنها سوف تُفرغ دمي، وعرفت حِس أن أكون شَبَحاً، مسطَّحاً ليس له إلا بُعد واحد، لا صوت له، عرفت عندئذ أنها سوف تقول لنفيسة، وأن نفيسة بدورها سوف تقول عن سرها لأختي عايدة التي تردَّدت كثيراً وكانت خائفة أن تقول لي حتى وادعتها وطمنت من روعها: ما أنا مش عارفة حنعمل إيه مع الواد التلميذ ابن الجماعة القَبَط اللي فوق. طب هوه بيحبني، حِلو، يا فرحتي. وكلامه يا ختي ساعات كده يبقى حلو أوي، وساعات ما نفهمش منه حاجة. بيحبني. بيحبني. أهو كلام. ابن عم حديت. طب وبعدين؟ يُوه. . ما هو محروس بيزعل برضو. . طب حنعمل معاه إيه كده بقى.

كانت الشمس تحترق قبل أن تغوص تماماً عند الأفق. وسارت مُنى، ناكرةً لي، مبتعدةً عني، تحت سور القلعة القديم. ومعها الصيَّاد الشاب يدفع عربة كارّو عليها الطشت الكبير والتِرْسة الحبيس.

كانت مشتعلة الوجه من الحر، وهواءِ البحر اللاذع، وقُرب الفتى ورجولته التي انتصرتْ هي عليها، بأكثر من معنى. وكانت ما تزال تلعب بعقدها الكبير الحبَّات على صدرها، لا تكاد أصابعها الطويلة بأظافرها القوية تمس خط الشريان الأزرق الرفيع الذي يبدأ من أعلى النهد المجسَّم في فستانها الصيفي الخفيف. وكانت حركة فخذيها لدنة وموسيقية في سيرها، بلا مبالاة، بحيوية. فرسٌ شَموس، زهرةٌ بحرية تنضج في موجٍ حار.

الرياح الهُوج تعصف، لا ضابط لها، لوافِحُها من وقدةِ اضطرامٍ داخليّ عقيم، لا تستنيم إلى راحة.

كانت عيناها الجاحظتان قليلاً تنظران إليّ مباشرة، وهي تسبح في الماء الأزرق الرائق المحيط بنا، وسطح البحر سماءُ بعيدة يومض عليها التماع أشعة الشمس، نقط نور مدبّبة حادة، تهتزّ شاهقةً على فلك السماء المتموِّج. وكان عنقها المدوَّر بِجلدُه محلّى بطياتٍ ثلاثٍ رقيقةٍ ينثال الدم من جرح دائريٍ حوله، يترك في عمق الماء خطاً أحمر، يشجّ متعرِّجاً، محدّداجا ين. وكثيباً في داخل حدّه القاطعين.

بينما الموج شفَّاف ورقراق وصافٍ حوله، من كل الجوانب.

جسدها السابح بانسيابٍ حيوانيِّ هادىء كأنه بلا حدود. لكن الصَدَفة الصلبة تمسك به، لامعةَ الخُضرة، وفخذاها تضيئان في الموج بسمرةٍ مونقة. وكانت القواقع المدوَّرة اللامعة الظَهْر ملتصقةً بنهديها، مشرعة أشواكها.

كنا نسبح معاً، في عتمة الماء الرقراقة، دون ضغط، دون لهفة، دون توتر. كنا نسقط معاً ولم نصل أبداً إلى قرار.

العتمة المائية الخفيفة، وحدها مثيرة. حسُّ جسمها، قريباً مني، دافىءُ وسرّيّ يومض بسمرته الغضَّة، تحت فستان من الشَبَك، واسع الحلقات، أخضر الموج، يصل إلى ما فوق ركبتيها، وخيوط شبكته ناعمة ورقيقة النسيج، محبوكة وثيقة، ووجهها يلتصق بعنقي، لا أراه، بل أحس ضغط الشفتين الكبيرتين المليئتين.

خدشتُها بأظافري، وتقطَّر منها الدم النزْر ورحيق الحب النزر.

كان بيت الحب طويلاً وحاراً وعميقاً، وناعم الزغَب، وحض الرائحة، ومدفوناً في اللحم الطيِّع، وقد اخضلّ عشبه.

كان عَبَقها الحميم حرِّيفاً وحاداً. وكانت مُكرَّسةً للذّة، سيدةَ لعِب العشق الذي لا تُضارَع نشوتُه، تعاطيني، بحِنكة ومرانة، من غرائب شبَقها ولطائف عشقها ما لم يعرفه بشر.

ما زلتِ ماثلةً في دخيلتي.

ما زالت أحلامي هائمة حول جمالك الخاص، وما زالت أوهامي تحوم حول تجسّدك، حول سرّك.

أحقٌ أنني لم أرك، بنتَ البحر والتراب، هذه الأيام الطوال، هذه السنين، هذه الدهور؟ وماذا إذن في أحلام لياليّ المضطربة الثَبَج، وفي سَبَحات تجسداتك في العتمة وفي النور؟ كأنما من هواكِ، فقط طوارقُ الأبد، ومنكِ أيضاً أشباح النهار الملازِمة. وهذا العشق الذي لا يرِثُ ولا يبيد.

نارُ تحقّق الجسد هي نور الحق نفسه، ساطعاً، لا ينطفىء.

خمرة النشوة بلورة غضة في حبّة العنب لا تغيض.

وما زلت أضرب في مَتالِفِ موجِ الشوق، ظمآنُ إلى ملْح المحبة، أكابد روعات الهوى والطلب، ومهالكه.

انكسرت سفينتي، أنا أيضاً، فإلى متى أستطيع أن أخوض غمراتِ اليمّ؟

وهل أحطّ عند مرسىً قريبٍ أو بعيد؟ أهناك قارب، هناك، على شاطىء البحر، ينتظرني، متروكاً لي، مائلاً على جنبه؟